نقد النقد

وبؤس العقل الإسلامي

أ. د. حسن حماد

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة

أستاذ كرسي الفلسفة لليونسكو بجامعة الزقازيق

والعميد السابق لكلية الآداب

جامعة الزقازيق

مقدمة:

يختلف نقد النقد في الثقافة العربية عن نقد النقد في الثقافة الأوروبية اختلافًا جذريًا، فلم تعرف الثقافة العربية في تاريخها الوسيط سوى محاولة وحيدة لنقد النقد، وهي تهافت التهافت لابن رشد، وهي نقد لنقد الغزالي للفلاسفة، أو إن شئنا الدقة: هي نقد لتكفير الغزالي للفلاسفة؛ وبالتالي فإن تهافت التهافت محاولة للدفاع عن مشروعية الفلسفة في وجه من يكفرونها، ولم تكن نقدًا للعقل العربي بالمعنى الدقيق. أما التاريخ العربي الإسلامي في العصر الحديث، فلم يشهد سوى محاولات فردية محدودة لنقد النقد، وكان المحرك لها الدوافع النرجسية والاستعراضية، والرغبة في تألية الذات، على نحو ما فعل "جورج طرابيشي" في نقده "لمحمد عابد الجابري" و"حسن حنفي". ومحاولة الطرابيشي وغيرها كلها تقريبًا محاولات لم تستطع التخلص من ثقافة المسلمات، أعني أنها لم تستطع أن تحقق قطيعة مع الماضي مثلما حدث في أوروبا، فمشاريع التحديث التي قام بها رواد الحداثة العربية مع مطلع القرن العشرين لم تتجاوز حدود التفكير بالمسلمات، وبعض التجرؤ على إعادة تأويل بعض النصوص.. هكذا فعل كل من محمد عبده، وعلي عبد الرازق، ومصطفى عبد الرازق، ولم ينجو من هذا التأطير، ومن هذا المصير سوى "شلبي شميل"، و"سلامة موسى"، و"طه حسين"، ولكن ضاعت هذه الأصوات المنفردة وسط الضجيج والصخب العام المهووس بما هو تراثي أو قديم! وبعد هزيمة ١٩٦٧ وانهيار المشروع القومي الناصري دانت السيطرة للأصولية الدينية الإسلامية، ولم نشهد منذ ذلك الحين سوى محاولات خافتة لمراجعة مسلمات العقل العربي، خاصة تلك التي قام بها محمد عابد الجابري، وحسن حنفي، ونصر حامد أبو زيد، ومحمد أركون، والأخير كان يكتب بالفرنسية، ولولا ترجمات هاشم صالح لظل أركون مفكرًا فرنسيًا .. ماذا يعني هذا؟

هذا معناه أن العقل العربي مازال عقلاً دينيًا يفكر بالمسلمات، ويستمد يقينه وبرهانه من النصوص وأقوال السلف الصالح!! ولم تفلح المحاولات النقدية والتفكيكية التي قام بها بعض أفراد النخبة المثقفة في أن تتحول إلى تيار أو حركة ثقافية يمكن أن تجد لها تجاوبًا مع الجماهير في الشارع العربي. بقيت هذه المحاولات مجرد نضالات دونكيشوتية ونخبوية معزولة، ولذلك فلم نستطع حتى الآن أن ندخل مرحلة الحداثة الفكرية، والتي تعني أول ما تعني القطيعة مع الماضي.

لهذه الأسباب السابقة يبدو لي أن الحديث عن نقد النقد سيعد ترفًا في واقع ثقافي لم يتجاوز بعد مرحلة التفكير السحري. تأملوا معي ما تكتبه النخبة المثقفة على صفحات

التواصل الاجتماعي من أدعية، وتعاويذ، وتمائم يدعون الأصدقاء إلى نشرها، وإعادة إرسالها لأصدقائهم وذويهم من أجل أن تحل بهم البركة، ويزداد لديهم الخير والرزق، وتنتهي أزماتهم النفسية والمادية والاجتماعية !!! بماذا نسمي هذا سوى أنه نمط من أنماط التفكير السحري. الكلمة في السحر تساوي الفعل، أو لها قوة الفعل، وهذا ما نفعله الآن في القرن الواحد والعشرين، مازلنا أيها السادة نحيا في عصر السحر، فكيف نتحدث عن نقد النقد؟ وكيف نتحدث عن نقد العقل إذا كان العقل غائبًا ومغيبًا ومستقيلاً من حياتنا؟

إن الأمر يختلف في الثقافة الغربية "كانط" ينتقد العقل ويضع حدودًا له، ويعترف بعجز العقل عن الوصول إلى الغيبيات والخوارق والمعجزات، ويرى أن طريق العقل الخالص هو العالم الحسي المادي الأرضي الذي يقع في حدود الممكن. "هيجل" يخضع التاريخ والطبيعة والوجود لنواميس العقل، ثم تأتي مدرسة "النقد النقدي" – كما يحلو "لماركس" أن يسميها – كي تراجع مثالية هيجل وتتخلص من أطيافه اللاهوتية. غير أن ماركس وأنجلز يعتبران مدرسة النقد النقدي امتدادًا للهيجلية، وينتقدان الفكر الهيجلي الجديد بضراوة غير مسبوقة، ويتهمانه بالأيديولوجية، أو القناع الذي يخفي تناقضات وعورات الواقع. ويأتي نيتشه بمطرقته ليحطم كل أصنام العقل، ويراجع مجمل تاريخ الفلسفات المثالية بدءًا من أفلاطون إلى شوبنهور، ويعلن في قسوة قتل الأب بالمعنى اللاهوتي والفلسفي، لأنه لا فرق لدى نيتشه بين المطلق الفلسفي والمطلق الديني، كلاهما إلغاء للإنسان وللحرية وللحياة، وتأكيد للعدمية في أبشع صورها. ويمضي "جاك دريدا" على دروب نيتشه، فيقوم بتفكيك كل المركزيات الأوروبية، وفي مقدمتها مركزية اللوغوس، سواء كان العقل بالعنى اليوناني، أو الكلمة المقدسة بالمعنى اللاهوتي. وفي اتجاه آخر يقوم فلاسفة النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت بثورة من داخل الماركسية ويقومون بتهديم الكثير من الثوابت الفلسفية الغربية، وعلى رأسها مشروع التنوير، ويوظفون أطروحات هيجل، وماركس، وفرويد من أجل إعادة تشكيل العقل الغربي، ويفتحون بابًا جديدًا للحرية بعيدًا عن مؤسسات القمع والسيطرة والإرهاب.

أين نحن إذن من هذه الثقافة التي لا تتردد عن تحطيم أصنامها، ومن هذا العقل الذي لا يمل من معاودة مراجعة أطروحاته، ولا يخشى من ممارسة النقد الذاتي الذي من خلاله تنهار كل نزعة دوجماطيقية وتسقط كل التابوهات والمحرمات؟ أين نحن من هذا الترف إذا كان العقل العربي – المسلم لم يزل واقعًا عند حدود العصور الوسطى، ولم يزل مشغولاً حتى أذنيه بقضايا الهوية، والخلافات الفقهية، والعقائدية والطائفية؟ لم يزل هذا العقل يحيا مرحلة المراهقة الفكرية ويستمنى على مشروع الحداثة الغربية في حين يعلن مشايخنا بأعلى صوتهم

من فوق منابرهم أن شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار!

إننا بحاجة إلى أن نتطهر بشكل فيورباخي من هذه الذهنية التكفيرية، التحريمية، التقديسية، وأن نتحرر من هذه الثقافة البطريركية الذكورية التي لم تزل توحد بين قضية العربي الإنسانية وبين أزمته الجنسية، ولم نزل نخلط بين البطولة السياسية والفحولة الذكورية.

إننا بحاجة لأن نحرر اللغة العربية من كافة أطيافها السحرية والدينية والأبوية، وأن نقرأ النصوص الدينية في ضوء واقعها التاريخي والإنساني الذي ظهرت فيه، وأن يكون لدينا المقدرة على التخلص من نرجسيتنا المريضة، وأوهام تفوقنا الديني على الآخرين وامتلاكنا للحقيقة المطلقة.

خلاصة القول إن العقل العربي – الإسلامي قد أمسى مستنزفًا، ومستهلكًا، ومنهكًا في قضايا عقيمة ولا مجدية، لذلك غاب عنا الإبداع وانزوى العقل بعيدًا في الحياة اليومية التي سقطت في قبضة الأصوليات الوهابية والداعشية، ولن نخرج من هذا المستنقع إلا إذا كان لدينا الجرأة على نقد الذات وتعريتها من كافة أوهامها وأمراضها، والأهم من كل ذلك أن يكون لدينا الوعي بأزمتنا وغيبوبتنا، وبالقمع الذي يحاصرنا ويعيش بأعماقنا ويستوطن عقولنا.